منير شفيق*

محمد أسد

من عالم الغرب إلى أخوّة المسلمين ومن النظرة العلمانية إلى الإسلام

«قراءة في كتاب الطريق إلى مكة»

ملخّص

محمد اسد (ليوبولدفايس)، نمساوي ترك بلاده واتجه إلى العالم الإسلامي، فساح فيه سياحة واعية متطلعة، فأسلم، ثم كتب *الطريق إلى مكة* يعرض فيه شوطه الذي قطعه نحو الإسلام. يجمع الكتاب بين الجانب الفكري والأدبي، ويعبّر عن عمق تفاعل الكاتب مع الدين المبين. يتحدث محمد أسد عن ثقافة الغرب وما يشوبها من حقد ونظرات مشوهة تجاه المسلمين، وهي الحالة التي طرحت عليه أسئلة كثيرة انطلق للإجابة عليها من خلال جولته في بلاد المسلمين.

لقد رأى في العرب المسلمين مظاهر أثارت إعجابه وحبه، ثم راح يقارن بين الأخلاقية الإسلامية والأخلاقية الغربية. ومنهج الإسلام في الجمع بين الارتباط الروحي بالله والعلاقات الاجتماعية أثار اهتمامه فراح يدرس الإسلام وما ينطوي عليه من مفاهيم للكون والحياة والإنسان. وكان لارتباطه بالشيخ المراغي التأثير الأكبر في اعتناقه الإسلام. وراح يرى في الإسلام المنقذ الوحيد لما تعانيه البشرية من جدب روحي. ثم كان سفره لأداء مناسك الحج تأثيره الكبير حيث شاهد في ساحة الحج ما كان يحمله من أفكار عن الإسلام بمفاهيمه الروحية والاجتماعية.

---

* - باحث فلسطيني.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

● منير شفيق

مدخل:

الرجل مخاطر وليس مغامراً. والفرق بين الصفتين كبير،وإن ظهرتا مترادفتين. فالمغامر يخوض غمار الخطر فيما نصيبه من النجاح قليل، وربما كان ضعيفًا جـدًا، أمـا المخـاطر فيركب الخطر وإمكانات نجاحه عالية من دون أن يكون مضمونًا، أو خلواً من احتمـال الفشل، أو حتى التعرض للهلاك.

محمد أسد (ليوبولد فايس) كان ذا طبيعة مخاطرة وليست مغامرة. فعندما ترك موطنه النمسا، منتقلاً إلى بلاد الشرق خاطر بما كان عليه من مستقبل واعد ولكن مـن دون أن يفقده كليًا إذ كان بمقدوره أن يعود إليه كل حين إذا مـا كتـب الله لـه الـصحة والعمـر. وعندما جعل يتنقل من بلد إلى بلد، ويقطع المسافات ويتجاوز الحدود، بظـروف صـعبة وغير مواتية لم يكن ذلك مغامرة تؤدي إلى التهلكة المحتومـة، أو الراجحـة، وإنمـا كـان اقتحامًا لمجهول يعج بالأخطار الممكنة، والصعوبات الهائلة، مما استطاع تجاوزه كلـه، وإن أشرف على الهلاك في إحدى رحلاته الصحراوية في جزيرة العرب. ولم ينجه من المـوت غير رعاية الله والقدر الذي ساق إليه من أنقـذه مـن بـراثن الرمـال الملتهبـة والجـوف المشتعل عطشًا، والجسد الذي لم يعد يقوى على الوقوف أو الصراخ.

هنا تجب الإشارة إلى أن كتاب *الطريق إلى مكة*[*] يجسد صورة لبطولة إنسانية فردية تصلح لأن تكون رواية درامية يبحث عنها خيـال مـؤلفي كتـب المغـامرات، ومخرجـي الأفلام التي تحبس أحداثها الأنفاس. ولكن لما كان محمد أسد أديبًا بليغًا، وقصاصًا دقيق الوصف، يجيش بالشاعرية خصوصًا وهو يصف طبيعة الـصحراء العربيـة، بتضاريـسها، وحركة رمالها، وكثرة تلاوينها وقـسوتها، وحنانهـا، وروعتـها، وجلالهـا، بتضاريـسها، وحركة رمالها، وكثرة تلاوينها وقسوتها، وحنانها، وروعتها، وجلالها، مع حجب خاص

* - اعتمد على الترجمة العربية لكتاب «الطريق إلى مكة» وقد حملت عنوان «الطريق إلى الإسلام» ترجمة عفيف البعلبكي، الطبعة الثالثة، ١٩٦٨، دار العلم للملايين، بيروت – لبنان.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لإنسانها. فقد جاء الكتاب قطعة أدبية وعملاً فنيًا حيًا حتى لو جردناه من محتواه الذي يهمنا أولاً وقبل كل شيء، وهي تجربته في الانتقال إلى الإسلام.

الكتاب يدخل في أدب الرحلات وكتب السيرة الذاتية فهو مذكرات حية بكل ما تحمل الكلمة من معنى. فالرجل يروي ما مرّ به من أحداث ترحاله المتواصل، واجتاحته من مشاعر والتهبت في رأسه من أسئلة، وخطرت بباله من أفكار ونقاشات نظرية مازالت مطروحة إلى يومنا هذا. فهو عمل يندرج أيضًا بين الأعمال النظرية الفكرية التي تتكشف عن مفكر مهموم بقضايا الإنسان المعاصر وإشكالات الحداثة. ولكن هذا كله يمرّ من خلال معاناته الفردية في الانتقال من تركيبة عقدية إيديولجية حضارية امتزج فيها انحداره من عائلة يهودية وانتماؤه إلى المجتمع الغربي وترعرعه بين أحضان أوروبا ما بعد الحرب العالمية الأولى، إلى تركيبة عقدية وإيديولوجية وحضارية أخرى. إنه انتقال من عالم إلى عالم، ليس من خلال تغيير القناعات والانتماء فحسب وإنما أيضًا الانتقال الجسدي والبيئي والاجتماعي ليعيش بعقله وروحه وسلوكه وعواطفه وحياته اليومية في عالمه الجديد، عالم الإسلام والعرب وجزيرة العرب.

من هنا كان كتاب *الطريق إلى مكة* عملاً أدبيًا راقيًا، وفكريًا نظريًا عميقًا، وتجربة إنسانية فردية فذة. ولما كان تجسيداً لطريق من فيينا إلى مكة عبر دروب متعرجة صعوداً وهبوطًا، وذات انعطافات خطرة تخلّلتها الصراعات النفسية والانشدادات إلى خلف وأمام، وتدفقت من فوقها ومن أسفل منها، ومن بُعد وقُرب. عشرات الأسئلة الصعبة والمعقدة وجاء الحل بالهداية إلى الإسلام لتنتهي إلى مكة، ولتبدأ من جديد، فقد جاء كتابًا إسلاميًا يساعد الغربي الذي يبحث عن الحقيقة ويريد أن يعرف الإسلام على حقيقته، ويثبّت المسلم الذي راحت تجتاحه رياح الحضارة الغربية لتغرّبه وتضعف يقينه، كما يمكنه أن يزيد النفوس المطمئنة ثقة وسكينة.

كتاب *الطريق إلى مكة* عدسة مكبّرة تجعلك تطمئن إلى أن الرجل الذي ترك إسلامه

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وكتاباته الإسلامية كل هذا الأثر كان صادقًا مستقيمًا وهو يعبر ذلك الطريق الذي أوصله إلى مكة، ولا نزكي على الله أحدًا. ولكن الصدق والاستقامة في هذا المقام يعززان إسلام محمد أسد وفكره وتأثيره. ويبطلان كل تشكيك في قدرة الإسلام على الإقناع والهداية والتغيير. ويبددان كل تشويه حول الدوافع والنيّات.

ثمة محطات ركز عليها من بين محطات كثيرة تستحق الوقوف عندها، من دون الادعاء بأنها أولى من غيرها، أو من دون أن يصادر رأي من يرى غيرها أهم منها، أو لا تقل عنها أهمية، بين دفتي هذا الكتاب الفريد. ولهذا لا عجب إن تعددت التقويمات له بسبب غناه وما احتواه من موضوعات. ومن ثم لا يزيد هذا المبحث عن أن يكون محاولة متواضعة جزئية في استشفاف أبعاد كتاب *الطريق إلى* مكة وسبر أغواره.

أوروبا بعد الحرب العالمية الأولى

يغطي محمد أسد في الكتاب صورة أوروبا بعد خروجها من مآسي الحرب العالمية الأولى وكوارثها، وما ساد في العشرينيات من القرن الميلادي المنصرم، من توجهات مثل اعتبار المعرفة كل شيء من دون ربطها بالأخلاق، حيث اهتزت القيم وشجعت الثورة على التقاليد، وروّج لحرية الجسد، وسادت أفكار فرويد ونيتشه (الصفحات ٨٥ – ٨٨)، وعبد التقدم المادي، واستقلت الحياة عن الطبيعة بحثًا عن العيش السهل والرفاه، وساد الخواء الروحي، وتمزّقت علاقة الإنسان بالإنسان . فأوروبا تعتبر نفسها البداية والنهاية (ص ١٠٢). وكان قد انتقد في صفحات سابقة نظرة الغرب إلى العالم منذ الرومان واليونان: «هو العالم وما عداه فبرابرة» وما التاريخ إلا تاريخ أوروبا وما عداه فحالات متعثرة. وقدم فيما قدم في هذا المجال تحليلاً هامًا حول «الحروب الصليبية» وأثرها في العداء للإسلام وتشويه صورته. فالأذى الذي جلبته تلك الحروب «لم يقتصر على اصطدام استعملت فيه الأسلحة وإنما من طريق تفسير التعاليم الإسلامية تفسيراً

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

خاطئًا متعمدًا..» (ص ٢٢) ويرى أن ذلك بقي مستمرًا حتى اليوم ملاحظًا أن الحقد الغربي القديم ضد الإسلام استمر «بطريقة لا شعورية في زمن خسر فيه الدين القسم الأكبر من تأثيره في مخيلة الغربي». ويفسر هذه الظاهرة بالقول «إن شخصًا ما يمكنه أن يفقد بالكلية المعتقدات الدينية التي لقّنها في طفولته، ومع ذلك فإن انفعالاً معينًا ذا صلة بتلك المعتقدات أصلاً، يستمر دونما وعي في حالة العمل إبان حياته فيما بعد» (ص ٢٣).

ذلك هو المناخ الذي عاش ليوبولد فايس (محمد أسد) فيه. وراح يستثير فيه سلسلة من الأسئلة الفلسفية والسياسيةوالاجتماعية. ولم يكن ذلك بمختلف عن أقرانه الشباب الذين راحوا يستشعرون الأزمة. ويطرحون الأسئلة مثل كيف يمكن أن يغيّر المجتمع ليعيش الناس بصلاح وبحبوحة؟ كيف يجب أن يسوّي علاقاتهم ببعضهم لكي يتمكنوا من اختراق «العزلة التي كانت تحيط بكل إنسان، وأن يحيوا حياة مشتركة صحيحة؟ ما هو الخير ما هو الباطل؟ ما هو القضاء والقدر» (ص ١٠٠).

كانت هذه الأسئلة تعذب الشاب ليوبولد فايس ولخصها من خلال سؤاله: كيف يمكن أن أصبح: «أنا ومصيري وحدة لا تتجزأ»؟ فقد كانت الحيرة تأكل قلبه حول «معنى حياته»، «فأصبح أينما ذهب لا يستقر، ولهذا أراد أن يتحرك وراح بالفعل يتحرك. فإن محاولة اكتشاف الذات»، والتي لا تنفصل عن اكتشاف الحقيقة، هي التي قادته في الآتي من السنين إلى عالم مختلف (ص١٤) وكان الجواب قد أعياه من داخل أوروبا مادامت تعتبر نفسها «البداية والنهاية». فقد كان «مع التقدم ولكن مع شيء آخر إلى جانبه» فلم يكن «بمقدور أحد أن ينتقد التقدم» (١٠٤). ولهذا عندما وقع على كتاب «لاوتسي» الصيني أعجب بالحكمة الصينية. فلاوتسي كان يعلم كيف يتوحد الإنسان مع نفسه ومع مصيره ومع ذلك لم يكن قادرًا على مناقشة أساس الحياة الأوروبية، فبقي ليوبولد على أرضها. وبدأ لاوتسي يتراجع ليصبح شعرًا جميلاً ليس أكثر.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ثمة تفسير لافت يقدمه محمد أسد حين يبحث أحد الغربيين في الهندوسية أو البوذية حيث يعرف دائمًا «الفروق الأساسية بين هذين المعتقدين وبين معتقده الخاص إلا أنه قد يعجب ببعض آرائهما. ولكنه بطبيعة الحال لا يمكن أن ينظر في إمكان الاستعاضة بهما عن آرائه الخاصة» ولهذا يمكن أن يتبصّر بهذه الثقافات برصانة واتزان، وفي أحيان كثيرة بتقدير وإكبار وديين. «بيد أنه عندما يصل الأمر إلى الإسلام، وهو ليس غريبًا عن القيم الغربية بمقدار الفلسفتين الهندوسية أو البذوية، فإن المحاباة العاطفية تفعل فعلها في هذه الرصانة الغربية، بصورة تكاد تكون دائمة وثابة فتضطرب وتختل، وتساءل «هل السبب في ذلك يعود إلى أن قيم الإسلام قريبة فعلاً من قيم الغرب إلى درجة تكفي لأن تشكل خطرًا ممكنًا على كثير من المفاهيم الغربية في الحياة الزوجية والاجتماعية؟».

ولكي تكتمل الصورة فإن هذا الشاب الذي راح يعاني من أسئلة هزت كيانه هزًا كان بإمكانه أن يتعامل معها من خلال ترف فكري يتمتع به من وُلد لجد صيرفي ثري ووالد كان محاميًا شهيرًا وجده الآخر حاخامًا. أي كانت أبواب التقدم في معارج العلم والحياة الغربية مفتوحًا على مصاريعها. ولكنه رفض أن يسير في الطريق المرسوم وآثر أن يعاين البطالة والتسكع والبحث عن عمل صحفي بلا جدوى. وقد جعل في عام ١٩٢٠ الصعود إلى قمة الأدب مبتغاه (ص ٧٩، ٨٩، ٩٠) أي هيأ نفسه لرحلة الاكتشاف والمخاطرة والبحث عن الحقيقة، وترك أسئلة المصير. وتغيير العلاقات الإنسانية تحاصره من دون أن يحاول منها هروبًا. ومن هنا بدأت رحلته في الاتجاه الآخر لا يلوي على شيء وراءه غير نقد صارم لما آلت إليه الحياة في الغرب، ولما راح يسود من اتجاهات في الفكر والسلوك والممارسة. وقد حمل الأسئلة المعذّبة معه بحثًا عن الأجوبة.

حب العرب

يمكن أن توضع المحطة الثانية التي يراد التوقف عندها تحت عنوان «حب العرب».

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فقد قيل إن الذي أوصل ليوبولد فايس (محمد أسد) إلى الإسلام بدأ من حبه العرب وإعجابه بهم، الأمر الذي يثير الدهشة إن لم يكن السخرية من قبل كثيرين دأبوا في هذه الأيام على هجاء العرب. وبعضهم تغرّب حتى العظم فأصبح نمط الحياة في الغرب وسلوك الفرد الغربي نموذج القياس عندهم. وبهذا لم يعودوا يرون في العرب أمة وأفراداً غير ما يستحق التحقير. ولكن هنالك، للأسف، ممن يتخذون من الوطنية القطرية أو القومية العربية أو الإسلام مرجعية، ويسعون إلى التغيير، سيدهشون أو يسخرون كذلك، لأنهم لا يتوانون عن هجاء العرب والمسلمين فيما يظهرون الغيرة عليهم، ولكن شريطة إدخالهم في مدرسته الفكرية الخاصة ليصبحوا جديرين بالنهضة والحياة والاحترام.

محمد أسد القادم من أرقى عواصم الغرب والذي يعرف الفرد والمجتمع الغربيين من داخلهما بدأ يتعرف إلى الإنسان العربي العادي منذ حطت قدمه (١٩٢٢) على شواطئ مصر متجهًا إلى فلسطين، فكان وجوده في فلسطين وما شاهد وخبر وعرف من سكانها العرب وأخلاقهم ومسلكهم الفردي ونظرتهم إلى الحياة، وتعاملهم مع الصلاة، وكانت جولاته بعد ذلك في شرقي الأردن وسوريا ومصر والعراق وإيران وأفغانستان وتركيا وكانت تجربته الأوسع والأعمق في السعودية بعد ١٩٢٧ حيث أمضى ست سنوات.

نما حبه للإنسان العربي من خلال أحداث ومشاهدات بسيطة وقد رأى في كل منها دلالة لافتة قد يراها العرب أموراً عادية. ولأنها كانت كذلك وصلته بلا كلفة فأثرت في نفسه أيما تأثير: الكرم الفردي البسيط الذي بدأ ببدوي شاركه عربة القطار إلى غزة فقاسمه كعكة ابتاعها من دون أن يعرفه أو حتى يبادله الكلام. ثم مروره بقرية تنهبها الرياح طوال النهار ويعاني أهلوها من قسوة الطبيعة وشظف العيش ومع ذلك كانوا مستسلمين لإرادة الله قانعين بحياتهم فرآهم عالين على ما حولهم! إنه الرضى الذي يقهر الحاجة والصعاب (ص١١٩). وقد دهش وهو في القدس من مرأى رجال فقراء عاملين وهم يتحلّقون حول الأكل فأعجب «بنبل جلدهم واحتمالهم وهدوئهم الداخلي. فكنت

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تستطيع أن ترى أنهم يكنون الاحترام لأنفسهم ولأمور حياتهم اليومية» (١٢١). ومن الأمثلة التي يمر بها إعجابه بمشهد مصلين في القدس وكيف كانوا يستغرقون وهم يؤدون الصلاة. وقد شرح له أحدهم المعاني التي تحملها حركات الصلاة وقد تأثر بما سمع وبدأ يلحظ كيف يكون المسلم وهو يصلي «رجلاً مطمئنًا إلى نفسه» (ص ١٢٢). وعلق على عرب القدس وهو يراقب حياتهم بأنهم «أصحاب الأرض الحقيقيين» (ص ١٢٤) ورفض الصورة الصهيونية عن فلسطين فأكد بأنها «كانت بلدًا عربيًا أكثر منه يهوديًا» (ص ١٣١).

وعود إلى حديثه عن العرب، وقد رآهم يتسمون برشاقة عاطفية في معالجة مسائل الحياة جميعًا، وذوق شعوري أعلى. وهنالك الكثير في الصفحة (١٣٩) في تمجيد العربي. ولم يكن ليتمالك أن يقارن بينه وبين الغربي الذي يفتقر «إلى الهدوء ويعامل الزمن كأنه عدوه»، ليرى الفارق بينه وبين العربي «في التعامل مع الطبيعة والحياة ومع داخله».

ثم بدأت تتفتح عيناه أكثر على ما راح يلمسه من مشاهد الجور الغربي. ومع ما يعطيه الغرب من أسباب لتدخله الجائر، وهي أسباب مازالت مكررة حتى اليوم. فيقول «طوال السنين التي قضيتها في الشرق الأوسط – غريبًا أعطف على شعوبه من عام ١٩٢٢ إلى عام ١٩٢٦، ومن بعده، مسلمًا أشاطر أهداف المجتمع الإسلامي وآماله، منذ ذلك الحين حتى يومنا هذا شهدت الجور الأوروبي الثابت على الشعوب الإسلامية. كما شهدت كيف يحاول الأوروبي تبرير هذا الجور. وكلما حاول المسلمون أن يدرأوا عن أنفسهم هذا الجور، فإن الرأي العام الأوروبي، بشعور مصطنع من البراءة، يعزو هذه المقاومة إلى «كراهية المسلمين الظالمة لجميع الأجانب» (١٤٠).

وأخيرًا وليس آخرًا بلغت دهشته بالأمن العاطفي لدى العربي حدًا دفعه إلى التعرف إلى «الشيء الذي كان في أساس ذلك الأمن العاطفي». مما جعل الحياة العربية مختلفة. بيد أن هذا البحث عن ذلك الشيء وراء الشخصية العربية كان في الحقيقة بحثًا في أغوار

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

نفسه علّه يجد إجابة عن تساؤلات حملها معه منذ بداية قلقه من الحياة في الغرب. ولكنه طرح في هذه اللحظة من تفكيره سؤالاً خطيرًا يعني المسلمين: إلى متى يستطيع هذا الشرق أن يحتفظ بتماسكه الروحي في وجه الخطر الذي يطبق عليه؟ «إن آلافًا من القوى السياسية والاجتماعية والاقتصادية تطرق أبواب العالم الإسلامي، فهل يخضع هذا العالم ويستسلم إلى حضارة الغرب ويفقد خلال التفاعل، لا أشكاله وأنظمته التقليدية فحسب، بل جذوره الروحية أيضًا» (ص ١٤٠).

وهكذا بدأت رحلته نحو الإسلام بحثًا عن ذلك «الشيء».

محاولة فهم الإسلام

كان عام ١٩٢٣ بحثًا في الإسلام نفسه وكدحًا إلى فهمه. ففي القاهرة علق على صوت المؤذن: «كنت أسمعه في الأيام والأمسيات التي قضيتها في القاهرة تمامًا كما كان لحن القدس القديمة الدائم، وكما كان مقدرًا له أن يبقى طيلة أسفاري في الأراضي الإسلامية» فبرغم الفروق في اللهجة والتجويد، كانت هنالك «وحدة صوتية جعلتني أدرك في تلك الأيام في القاهرة مقدار الوحدة الباطنية لدى جميع المسلمين من العمق. ومبلغ الخطوط الفاصلة بينهم من التكلف والتفاهة. لقد كانوا واحدًا في اعتقادهم وواحداً في طريقة تفكيرهم وتمييزهم بين الحق والباطل، وواحداً في فهمهم قوام الحياة الخيرة». (ص ١٤٥). أحسّ أنه اكتشف مجتمعًا لم يتأسس على مصالح اقتصادية أو عنصرية وإنما تجمعه «صلة من الفهم المشترك للحياة أزالت كل حواجز العزلة والانفراد بين الإنسان والإنسان».

وعندما كان في دمشق في السنة نفسها، مشردًا، أجرى مقارنة طريفة بين يوم الجمعة في دمشق ويوم الأحد في أوروبا حيث شوارع المدينة والمخازن مغلقة، فتذكر كل تلك الأيام الفارغة وضيق الصدر بسبب ذلك الفراغ لماذا؟ «لأن الحياة اليومية بالنسبة إلى

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

معظم الناس في الغرب عبء ثقيل لا يريحهم منه سوى أيام الآحاد. إن يوم الأحد لم يعد يوم راحة فحسب. بل أصبح أيضًا مهربًا إلى اللاحقيقي، نسيانًا خادعًا تكمن وراءه أيام الأسبوع مضاعفة الثقل والقذر». أما في يوم الجمعة عند العرب فشوارع المدينة كلها مليئة بالجلبة والضوضاء، كسائر أيام الأسبوع باستثناء الفترة التي كان الناس يتجمعون فيها في المساجد، ومنهم لن يعود بعد ذلك إلى تجارته أو عمله. إن يوم الجمعة لم يكن فرصة لنسيان أيام العمل. فالعلاقة بين العامل وعمله تقوم على توافق «لابد أن يكون الإسلام قد تصورهما الحالة الطبيعية للأشياء ولذلك لم يفرض أية راحة إجبارية يوم الجمعة» (١٦٨-١٦٩).

وعندما ذهب مع صديق له ليشاهد المصلين في الجامع الأموي قال لصاحبه «ما أغرب وأدهش أن تشعروا أن الله قريب منكم إلى هذا الحد، أود لو أستطيع أن أشعر نفس هذا الشعور» فأجاب صاحبه «وكيف يمكن أن يكون الأمر غير ذلك يا أخي أليس الله كما يقول كتابنا الطاهر: ﴿ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾ (ق: ١٦).

إنه العام ١٩٢٣ الذي بدأ يركز فيه على قراءة الإسلام ومحاولة فهمه. وكانت أولى فتوحاته أن لاحظ: «إن الإسلام لم يبد لي دينًا بالمعنى الشائع للكلمة بمقدار ما بدا طريقه في الحياة، ولا نظامًا لاهوتيًا بمقدار ما تبيّنته منهاجًا للسلوك الشخصي والاجتماعي قائمًا على ذكر الله. ليس هناك في الإسلام من خطيئة أولى موروثة تقف بين الفرد ومصيره ذلك: ﴿وأن ليس للإنسان إلا ما سعى﴾ (النجم: ٣٩)، وليس هناك من أثر للثنائية في اعتبار الطبيعة الإنسانية، ذلك لأن الروح والجسد يعتبران وحدة صحيحة كاملة (١٧٠).

ويقول: «لقد أجفلت بعض الشيء، في أول الأمر، لا لاهتمام القرآن بالأمور الروحية فحسب بل أيضًا بكثير من وجوه الحياة التي كانت تبدو لي تافهة دنيوية أيضًا. إلا أنني مع الزمن، بدأت أفهم أنه إذا كان الإنسان حقًا وحدة كاملة من جسد وروح،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كما يؤكد الإسلام، فإنه ليس هناك وجه من وجوه حياته يمكن أن يكون من التفاهة بحيث لا يقع داخل نطاق الدين» (١٧٠)، ومع ذلك «إن الحياة في هذا العالم ليست إلا مرحلة من طريق الإنسان إلى وجود أسمى» (١٧١). وعند هذا الحد من فهمه للإسلام سأل نفسه: «ألا يمكن أن تكون هذه التعاليم مسؤولة عن الأمن العاطفي الذي أحسسته، كل تلك المدة الطويلة، في العرب؟» (١٧١).

العودة إلى أوروبا

كانت عودته بعد رحلته الثانية إلى الشرق في عام ١٩٢٣ حاسمة في تحديد الطريق الذي سيسلكه إلى الإسلام. فقد وجد أنه أصبح غريبًا عن كل ما يشاهد في أوروبا إلى حد القول «لقد بدا الناس في عينيّ بشعين جدًا، حركاتهم وتصرفاتهم خرقاء، ويعيشون في عالم من الادعاء والتظاهر..» واعتبر أن اتصاله بالعرب «بدل بالكلية نظرتي إلى ما كنت أعتبره جوهريًا في الحياة» (ص ١٧٤)

ولعله من المهم أن يكون محمد أسد الآن قد تجاوز عتبة التسكع وشبه البطالة، والأحلام بالوصول إلى قمة عالم الأدب، فأصبح صحفيًا شهيرًا في أهم جريدة أوروبية «فرانكفورت تزاتيونغ»، مما يعني أنه في عام ١٩٢٣ كانت أبواب الشهرة والمال والنفوذ قد فتحت أمامه. ولكنه استمر في بحثه عن الحقيقة كما كان حاله قبل ثلاث سنين، مستعدًا للتخلي عن كل ذلك في سبيلها إذا لزم الأمر.

النقطة الثانية المهمة في عودته إلى أوروبا ١٩٢٣ تمثلت في الهوة الواسعة التي قامت بينه وبين أصدقائه القدامى حيث وجد أن الفارق أصبح كبيرًا بين ما يفكر به ويفكرون به. ولم ينقذه أو يخرجه من أزمة الغربة هذه غير تعرفه في برلين على السيدة «إلسا» التي فتن بشخصيتها ، ووجدها الأكثر تجاربًا مع ما يفكر به، وقد أصبحت زوجته، وكانت تكبره حوالي ١٥ عامًا. وكان ذلك بعد سنتين من ذلك التعارف إثر عودته مرة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أخرى إلى أوروبا من رحلة ثالثة في بلاد العرب.

يبدو أن زواجه من هذه السيدة ساعده على اتخاذ الخطوة الحاسمة في فهم الإسلام، بصورة أعمق، وفي الوصول إلى الهداية وإشهار إسلامه. فقد كانت رفيقته في ذلك أيضًا. فهي، إلى جانب مشاركته في قراءة الإسلام والتعرف إليه وإثارة الأسئلة والبحث عن الأجوبة، حمت ظهره، وأمدته بالقوة النفسية والمعنوية لمواجهة تحدي إسلامه في أجواء إن لم تكن معادية فهي عازلة ونابذة. وأنه لمن الوفاء لهذه السيدة ولحب محمد أسد لها أن يذكر لها فضل في إسلامه وفي تشجيعه على اتخاذ هذه الخطوة الجريئة والتي كانت ذات أثر كبير، ولم تزل، في خدمة الدعوة الإسلامية كذلك.

مع الشيخ المراغي

في ربيع عام ١٩٢٤ عاد مرة إخرى إلى الشرق مبتدئًا بمصر وقد هزته إجابة عمدة أمّي بسيط عن سؤال لمسافر ثالث كان معهما في عربة الدرجة الأولى في قطار الإسكندرية إلى القاهرة حول لماذا لا يسمح الإسلام لغير المسلم أن يتزوج من مسلمة. وقد حلّت له عقدة يعتبرها على جانب عظيم من الأهمية، وفحوى الإجابة أن الإسلام يعترف بالأنبياء جميعًا فلا تؤذى الكتابية من زوجها في حين عدم اعتراف الكتابيين برسالة محمد (ص) يضعها في الموقع الصعب، وربما من قبل أولادها أنفسهم الذين يتبعون والدهم.

على أن الإفادة الأكبر في فهمه للإسلام جاءت من خلال صداقة حميمة مع الشيخ مصطفى المراغي الذي أصبح شيخ الأزهر فيما بعد. ولعل موقف الشيخ النقدي الإصلاحي لحال المسلمين ولمنهاج الأزهر في تعليم الإسلام قد جعل محمد أسد كما يقول: أصبحت أدرك سببًا من أعمق أسباب الانحطاط الثقافي الذي يصدم المرء في كل مكان في العالم الإسلامي. ألم يكن هذا التحجّر العلمي لهذه الجامعة القديمة منعكسًا، إلى

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

درجات مختلفة في العقم الاجتماعي للحاضر الإسلامي» (ص ٢٣٣). وقد رأى في ذلك سببًا ساعد الغرب على نشر الآراء الخاطئة عن الإسلام نفسه حتى شاع بين الغربيين القول «إن سقوط المسلمين عائد قبل كل شيء إلى الإسلام...» (٢٣٣)، وهنا أتت أهمية نقد الشيخ المراغي الذي يفرق بين حال المسلمين والإسلام، كما بين العقم الفكري والإسلامي. الأمر الذي أكد لمحمد أسد أن «رأس الغربي العادي يحمل صورة مشوهة بالكلية عن الإسلام». فثار على هذه الصورة متيقنًا من : «أن تأخر المسلمين لم يكن ناجمًا عن أي نقص في الإسلام، بل عن عدم عملهم هم أنفسهم بتعاليمه...» (ص ٢٣٤) وأقام الدليل على ذلك في إنجاز المسلمين الأوائل الذي يعود الفضل فيه للإسلام. **فالتعطش إلى المعرفة لم يؤكد ذاته عند المسلمين الأوائل «من خلال صراع مؤلم ضد الأديان وإنما بالعكس انبثق من ذلك الإيمان وحده» (٢٣٤).**

وكان من بين ما فهمه عن الإسلام في تلك المرحلة من حياته أنه حرّض على القول: «نعم» للعقل و«لا» للإبهامية، «نعم» للعمل و«لا» للركود، «نعم» للحياة و«ليس» للإماتة، ولا لقهر الجسد لخلاص النفس. والإسلام أنكر مبدأ «الخطيئة الأولى» وشدّد على الكرامة الفطرية للحياة الأرضية الدنيوية. وهكذا خلص إلى القول: **«ليست أسطورة التسليم بحد السيف هو التفسير لانتصار الإسلام المدهش في فجر تاريخه العظيم»**. وبكلمة، **«لم يكن المسلمون هم الذين جعلوا الإسلام عظيمًا، بل لقد كان الإسلام هو الذي جعل المسلمين عظماء» (٢٣٦).**

من هنا يتبين أن طريق محمد أسد إلى الإسلام كان كما قال هو نفسه: «لقد تكشف لي الإسلام، إذن، رويدًا رويدًا.. من حديث هنا وكتاب هناك، من نظرة هنا وملاحظة هناك بروية وبطء إلى درجة لم أشعر معها بهذا التكشف» (٢٣٨).

ولكن هذا الطريق بدأ بعد أن كان قد قطع شوطًا في نقد المجتمع الغربي والإيديولوجيات السائدة فلم يعد نمط الحياة في الغرب وحده الأفضل، ولم تعد الأفكار

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الغربية وحدها الصحيحة. وكان في أثناء ذلك قد تخلّى عن الإيمان بأن الله خاطب الإنسان مباشرة، واعتقد بأن الكتب المقدسة من صنع أناس حكماء (٢٢٦)، ولهذا كان انفتاحه على الإسلام ومحاولة تفهّمه أسهل بعد أن قطع ذلك الشوط. ولكن الانتقال إلى الإيمان بالله ونزول الوحي على محمد (ص) كانت العقدة الأصعب عليه مما لو كان مؤمنًا بالوحي الذي نزل على الأنبياء الآخرين عليهم السلام.

فهمه للإسلام

كان أهم ما لفته في الإسلام «**ذلك الالتئام الباطني بين تعاليمه الأخلاقية وتوجيهاته العملية**». فالله بمقتضى القرآن لم يطلب خضوعًا أعمى من جانب الإنسان بل خاطب عقله» (٣٢٧). وفيما يؤكد الإسلام على العقل كطريق إلى الإيمان راح مفكرو الغرب يطالبون العقل بدور طاغ في الحياة (٣٢٦). ولشد ما شغله، كما مر، قرب الله تبارك وتعالى من الإنسان ومصيره: آية ﴿ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾ (١٦) وبهذا لم يُرسم خط فاصل بين الإيمان والسلوك الإنساني الحقيقي (٣١٧).

وحدث الانشغال نفسه لديه عندما علم أن الإسلام لا يرى «الحياة مثقلة بنزاع المادة والروح، وأن الطريق إلى النور يتطلب تحرير الروح من قيود الجسد» (٣١٨)، فالإسلام اعتبر «الناس كائنات بيولوجية لهم حاجات بيولوجية». وقد أبدعهم خالقهم وكرمهم، بحيث يتعين عليهم أن يعيشوا في جماعات لكي يرضوا المدى الكامل لحاجاتهم الجسدية والمعنوية والعقلية. وباختصار إنهم يحتاجون إلى بعضهم، وأن استمرار سمو الفرد روحيًا (الهدف الأساسي لكل دين) يتوقف على ما إذا كان يحصل على المعنوية والتشجيع والحماية من أولئك الذين حوله، والذين، بطبيعة الحال، يتوقعون منه هذا التعاون نفسه. **هذا الاعتماد الإنساني المتداخل كان السبب في أن الدين في الإسلام لا يمكن فصله عن الاقتصاد والسياسية..**» هكذا فهم الإسلام وظيفة المجتمع الحقيقية، وهي

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تنظيم العلاقات الإنسانية العملية بطريقة تمكّن كل فرد من أن يلقى أقل قدر من العقبات وأكبر قدر ممكن من التشجيع في إنماء شخصيته» (٣١٩).

وهنا يجب أن يلحظ الهمّ الاجتماعي الذي حمله محمد أسد من أوروبا إلى الإسلام ليجد «أن الإسلام قدّم نظامًا للحقوق الفردية والواجبات الاجتماعية مع مراعاة حقيقة التطور التاريخي» (٣١٩). فالشريعة الإسلامية شملت الحياة من جميع وجوهها المعنوية والجسدية والفردية والاجتماعية. فقد صيغت جميع مواد الشريعة الإسلامية «لصالح أعضاء المجتمع كلهم بالتساوي دون تمييز على أساس الولادة، أو العنصر، أو الجنس (الذكر والأنثى)، أو الولاء الاجتماعي السابق (٣١٩ – ٣٢٠)، وليس هناك مفهوم يقوم على الطبقية، فجميع الحقوق والواجبات والفرص تنطبق بالتساوي على جميع المسلمين (٣٢٠).

أما من ناحية أخرى فقد أعجبه أن ليس هنالك حاجة إلى أي وسيط (رجل دين) للتوسط بين العبد وربه. والولاء لله ورسوله، وكل ولاء آخر معياره الولاء الأول. وبهذا تجاوز الإسلام القومية والحقوق المكتسبة والطبقية والكهانة والنبالة الوراثية. ويلخص رأيه قائلا: «كان الهدف إقامة ثيوقراطية فيما يتعلق بالله، وديمقراطية بين الإنسان وأخيه الإنسان» (٣٢٠) وبدهي أن استخدام «طاقة» و«مساواة وعدل» أدق من ثيوقراطية وديمقراطية.

ثم يتوسع في ذلك منتقلاً إلى الحديث عن الحضارة الإسلامية التي نظر إليها ونشأت عبر موافقة إرادية من الناس الذين كان يعنيهم أمرها. هنا لم يكن التقدم الاجتماعي شأنه في جميع المجتمعات والحضارات المعروفة في التاريخ نتيجة للضغوط على المصالح المتضاربة ومقاومة هذه المصالح. بل كان التقدم جزءاً من النظام الأصيل مشيراً إلى أن الإسلام أرسى «عقداً اجتماعيًا خالصًا هو في صميم الأشياء (من طبيعة الإشياء)، لا عقداً صاغته الأجيال التالية من أصحاب السطوة دفاعًا عن امتيازاتهم» (ص ٣٢١). أما

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الذي يريد التأكد من دقة هذه الملحوظة فيمكنه أن يراجع الصراعات التي دارت حول «الماغناكرتا»، وكيف صيغت وما تلاها من مواثيق وعهود، في تاريخ انكلترا على سبيل المثال. وهنا يقطع محمد أسد، وقبل أن يعتنق الإسلام، أن الإسلام قدم «**المثل الوحيد على عقد اجتماعي حقيقي سجله التاريخ**» (٣٢١).

في الواقع لم تكن عند محمد أسد، ومنذ البداية، صورة خادعة، أو أوهام، عن أحوال العالم الإسلامي. ولهذا اهتم في فهم النظام الإسلامي نفسه، ولم يمنعه عن ذلك فشل المسلمين المعاصرين في تطبيقه. فالذي أشغله هو أن يكون التطبيق قد نجح في فترة ما، ولو قصيرة، لأن ذلك يشكل الأمل إذ «ما بدا ممكنًا في يوم ما يمكن أن يصبح ممكنًا في وقت آخر» (٣٢٢). ولعله يكشف عن هذا الدافع الذي وجده في الإسلام حين يوضح: «لقد كان العالم الذي كنت أعيش أنا فيه – كل ذلك العالم – يترنّح بسبب من فقدان أي اتفاق على ما هو خير وما هو شر روحيًا، وبالتالي اجتماعيًا واقتصاديًا أيضًا. إنني لم أكن أؤمن بأن الإنسان الفرد كان بحاجة إلى «الخلاص»، ولكنني كنت أؤمن فعلاً بأن المجتمع الحديث كان بحاجة إلى الخلاص «**لقد شعرت أكثر من أي وقت مضى بأن عصرنا هذا كان بحاجة إلى أساس إيديولوجي لعقد اجتماعي جديد: بحاجة إلى إيمان يجعلنا نفهم بطلان الرقي المادي من أجل الرقي نفسه، ومع ذلك يعطي الحياة الدنيا حقها. إيمان يبين لنا كيف نقيم توازنًا بين حاجاتنا الروحية والجسدية، وبذلك ينقذنا من الهلاك الذي نندفع إليه برعونة وتهور**».. (ص ٣٢٣).

وبكلمة، أصبح العالم، في نظر محمد أسد، بحاجة إلى الإسلام.

اعتناق الدين الإسلامي

على الرغم من وصول محمد أسد إلى هذا الحد في فهم عدد هام من الموضوعات

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الإسلامية والتأكد من صحتها وصولاً إلى الاقتناع بحاجة العالم إلى الإسلام إلا أن ثمة عقبة مازالت تقف بينه وبين اعتناق الدين . ويصف حاله في تلك الفترة الحاسمة من حياته حيث لم يعد يشغله الاهتمام العقلي بإيديولوجية وثقافة غربيتين، وإن كانتا مشوقتين أخاذتين، إذ انتقل إلى أن يصبح همّه «بحثًا عاطفيًا حارًا عن الحقيقة». وهنا، لم يعد يرى كل ما قام به من أسفار وحازه من معرفة شيئًا أمام هذه المهمة الصعبة.

ولكن يتوجب الآن، قبل المضي قدمًا، التأكيد على أهمية وجود «إلسا» زوجه إلى جانبه تشاركه صعوباته ومعوقاته وأشواقه، وهي تبحث معه عن تلك الحقيقة. وكان يعاني من غربة إزاء أصدقائه القدامى بمن فيهم أكثرهم انتفاحًا وقبولاً لبعض الموضوعات مع إحجام عن التقدم أكثر. الأمر الذي جعل منها خير محفز للمضي فيما هو مقدم عليه.

يقول محمد أسد «... فقد عرفت الآن أنني كنت منسقًا إلى الإسلام، ولكن ترددًا أخيرًا جعلني أؤجل خطوتي النهائية القطعية. لقد كانت فكرة اعتناق الإسلام شبيهة بالمغامرة في اقتحام جسر كان يصل بين هوة بين عالمين مختلفين...» فقد كان مدركًا أنه حين سيصبح مسلمًا سيتعين عليه أن يقطع كل صلة به بالعالم الذي نشأ فيه (٣٢٦).

هذا من ناحية أما من ناحية أخرى فمازال أمامه السؤال رقم (١) الذي لم يجب عنه بعد إجابة إيجابية مطمئنة وهو: «هل كان الإسلام حقًا رسالة من عند الله أم مجرد حكمة من رجل عظيم، ولكن غير معصوم عن الغلط» (٣٢٦).

يروي القصة التي ساعدته على الاطمئنان إلى الجواب والانتهاء من القراءة، فقد كان مع زوجه «إلسا» في أيلول ١٩٢٩ يستقلان قطار برلين تحت الأرض حيث لفته وجه رجل أنيق ثري جلس قبالته ثم انتقل منه ليتفرس في وجوه الركاب الآخرين أمامه. فهمس بأذن زوجه لتبصر بالوجوه من حولها فراحت بدورها تتأمل في تلك الوجوه بعيني رسامة تشكيلية تحسن التدقيق في قسمات الوجه البشري، وإذا بها تقول «أنت

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

على حق إنهم جميعًا يبدون وكأنهم يعانون آلام الجحيم...» (٣٢٧). ثم اشتركا في الرأي بأن هؤلاء القوم لا يعلمون ماذا يفعلون وماذا ينقصهم؟ فهم أسرى «رفع مستوى معيشتهم» دون أيما أمل غير حيازة المزيد من الملذات المادية والمزيد من الممتلكات ولربما المزيد من القوة. عندما عادا إلى البيت وكان القرآن مازال مفتوحًا على المنضدة وإذا بسورة التكاثر أمامه: ﴿ألهاكم التكاثر﴾. وإذا به يفهمها على ضوء تلك التجربة في القطار فعلق قائلاً لزوجه «اصغي إلى هذا. إليس هو جوابًا عما رأيناه في القطار». «لقد عرفت الآن، بصورة لا تقبل الجدل، أن الكتاب الذي كنت ممسكًا به في يدي كتاب موحى به من الله، فبالرغم من أنه وضع بين يدي الإنسان منذ أكثر من ثلاثة عشر قرنًا فإنه توقع بوضوح شيئًا لم يكن بالإمكان أن يصبح حقيقة إلا في عصرنا المعقد الآلي» (٣٢٨).

«لقد عرف الناس التكاثر في جميع العصور والأزمنة، ولكن هذا التكاثر لم ينته قط، من قبل أن يكون مجرد اشتياق إلى امتلاك الأشياء والى أن يصبح ملهاة حجبت رؤية أي شيء آخر»... «عفريت راكب على أعناق الناس يسوق قلوبهم بسوط إلى الأمام نحو أهداف تتلألأ عن بعد، ولكنها تنحل إلى لاشيئية حالما تصبح في متناول اليد: وذلك الجوع النهم إلى أهداف جديدة لا تنتهي ينمو في قلب الإنسان: ﴿كلا لو تعلمون علم اليقين، لترونّ الجحيم﴾.

هذا لم يكن مجرد حكمة إنسانية من إنسان عاش في الماضي، «فإنه لم يكن ليستطيع وحده أن يتنبأ بالعذاب الذي يتميز به هذا القرن العشرون. لقد كان ينطق من القرآن صوت أعظم من صوت محمد...» (٣٢٩).

فكان إسلامه وكان إسلام زوجه «إلسا» بعد بضعة أسابيع.

الطريق إلى مكة

عندما أسلم محمد أسد وقد حسن إسلامه كان لابد من أن يهيجه الشوق إلى مكة،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المدينة التي أصبحت هدفه وغايته، ولم يكن ليعلم أنها كانت تناديه، تقول له: «إن ملكي هنا في هذه الدنيا كما هو ملكي في الآخرة، إن ملكي يحيط بجسم الإنسان كما تحيط به روحه وتمتد إلى كل ما يفكر ويشعر به وما يفعله إلى تجارته وصلاته، إلى غرفة نومه وسياسته. إن ملكي لا نهاية له ولا حدود...» (٣٧٥).

لقد أدرك كل هذه المعاني، كما مر ذكره، عبر عدد من سنين وعرف أن أخوّة الإسلام تنتظره منذ ولادته، واعتبر أن دخول الإسلام في نهاية المطاف حقق تلك الرغبة التي اعتملت في صدره منذ أولى أيام شبابه: «أن أنتمي إلى مدار معين من الأفكار والآراء، أن أكون جزءاً من أمة مؤلفة من إخوة» (٣٧٥).

إن مفهوم الأخوة الإنسانية، الذي يطرحه الإسلام ويعمل على تجسيده ولد تأثيراً خاصًا في عقل محمد أسد ونفسه، فقد كان المفقود الذي كان يبحث عنه منذ صباه ووجده في الإسلام، فألقى بكليته بين أكنافه، وهو ماعاشه ومارسه ومتّع روحه به منذ حجته الأولى. هذه الحجة التي بدأها في كانون الثاني (يناير) ١٩٢٧ وبصحبته زوجه «إلسا» وابنها الصغير، وكان الشعور الذي خالجه وأولى أمواج البحر تلطم جدران سفينته، إنه لن يعود إلى أوروبا أبدًا، فقد قرر أن يعيش مع المسلمين حيث يعيشون وكما يعيشون.

وإذا كان قد مر بذلك الشعور مرور الكرام إذ كان قد هيأ نفسه له، فإن مشغلة فكرية أخرى راحت تقلقه، وهي مشكلة احتكاك المسلمين والمسلمات بثقافة الغرب، بعد أن أصبح عالما الغرب والإسلام قريبين من بعضهما كل هذا القرب الذي لم يسبق له مثيل. وكان أول ما أخافه من الثقافة الغربية على المسلمين إبعادها لهم عن اعتقادهم السابق: «بأن تحسين مقاييس المعيشة يجب ألا يكون سوى واسطة لتحسين أحاسيس الإنسان الروحية» (٣٧٦). إنه خوف السقوط في وثنية «التقدم» نفسها التي «تردّى فيها العالم الغربي بعد أن قزّم الدين إلى مجرد صلصلة رخيمة في مكان ما في مؤخرة الأحداث» (٣٧٦). لذلك فإن المسلمين حين يفعلون ذلك سيصغرون مقامًا ولا يكبرون،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لأن «**كل تقليد ثقافي بخلاف الخلق والإبداع لابد من أن يحقر الأمة ويقلل من شأنها**» (٣٧٦ – ٣٧٧).

على أن محمد أسد يدعو إلى الإفادة من العلوم والصناعة والتقنية لدى الغرب لأنها إرث عالمي، ولم تكن يومًا خاصة شعب بعينه، أو حضارة بذاتها، فالتقدم في هذه المجالات كان عبر التناقل والتبادل، وتطور من عصر إلى عصر وعالم إلى عالم، ومن ثم ليس على المسلمين من خير في الإفادة من ذلك، بل هو واجب وضرورة، ولكنهم «إذا تبينوا – في غير حاجة إلى ذلك – إشكال الحياة الغربية والآداب والعادات والمفاهيم الاجتماعية الغربية فإنهم لن يفيدوا من ذلك شيئًا، ذلك **لأن ما يستطيع أن يقدمه الغرب لهم في هذا المضمار لن يكون أفضل وأسمى مما قدمته لهم ثقافتهم، ومما يدلهم عليه دينهم**» (٣٧٨).

ويطرح محمد أسد، في هذا الصدد، فكرة هامة وقوية جدًا قائلاً: «لو أن المسلمين احتفظوا بحريتهم الباطنية... ربما استطاعوا أن يعطوا إنسان الغرب سر طلاوة الحياة الضائع» (٣٧٨).

ويتساءل المرء عند هذا الحد، وبعد مرور أكثر من ثلاثة أرباع قرن، بهذه التأملات، أولسنا اليوم في مواجهة الإشكالية نفسها، ولكن بعد تجربة طويلة زادت موضوعة محمد أسد قوة على قوتها الأولى؟

تخطر ببال محمد أسد، وهو في المركب المصري الذي راح يقترب به من شواطئ جدة على الضفة الأخرى من البحر الأحمر، أهمية سيدنا إبراهيم عليه السلام في الإسلام، مما يتجاوز كثيرًا ما ذكر عنه في التوراة والإنجيل. وبلغت أن لأبي الأنبياء إبراهيم ذكر متوارث بين العرب إذ أن شطرًا كبيرًا منهم من سلالة إسماعيل، فقد استمر «البيت» الذي بناه إبراهيم وإسماعيل محجًا للعرب قبل الإسلام، بل يلحظ أن هتاف «لبيك اللهم لبيك» عند الاقتراب من مكة والكعبة هو ترداد لهتاف إبراهيم وهو يضع أحجار أسس البيت: «لبيك اللهم لبيك». ويبدو أن محمد أسد وهو يشدد على هاتين النقطتين كان في

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ذهنه أن يدحض اعتقاد كثيرين من الغربيين «أن محمداً أدخل إبراهيم في مدار التفكير العربي في محاولة منه لاستعارة الأولويات الدينية من اليهودية» (٣١٤).

ثمة وصف دقيق يذكره محمد أسد للحجيج من مصريين ومغاربة من شمالي أفريقيا وهم في المركب الذي يحملهم عبر البحر الأحمر إلى شواطئ جدة، وما يلاقونه من عنت بسب الازدحام الشديد وسوء الخدمات، وقلة الطعام، والتعب والحرمان من النوم، وشح الماء، وصعوبة الوضوء. وبكلمة أن كل ما يصحب هؤلاء في الرحلة إلى الحج يأتي بالإرهاق والإزعاج ويدعو إلى القلق والتبرم، ولكن كل هذا يحس به المراقب المحايد فقط وليس الحاج نفسه. فاستمع إلى قول محمد أسد: «لم يكن يبدو عليهم أنهم كانوا يشعرون بما يقاسونه من آلام ذلك أنهم كانا مستغرقين إلى أبعد حدود الاستغراق في التفكير في مكة، ولم يكن لهم من حديث سوى حجهم، والحق أن الانفعال الذي به كانوا يتطلعون إلى مستقبلهم القريب قد أضاء منهم الوجوه، وكانت النسوة تنشدن معًا أناشيد المدينة المقدسة، ومرة بعد أخرى، سمعت اللازمة: لبيك اللهم لبيك».

هذه الملاحظة التي تكشف سرًا من أسرار الحج في النفس المسلمة، أو تتكشف عن سر الحج في قلوب المسلمين وعقولهم وحتى أجسادهم وهي متعبة منهكة مازالت حية حتى يومنا هذا، ومازالت تتكرر أمام كل صعب ومشقة يواجهها حاج في طريقه إلى مكة، وفي أيام الحج وأداء شعائره فليس هنالك من مَنس للمسلم ألَمَهُ مثل الحج طريقًا ومقامًا ولحظات وساعات وأيامًا. أنها لتجربة جماعية ليس كمثلها تجربة في العالم، تجربة تطغى فيها السعادة على كل ما عداها.

عندما وصل المركب بحجيجه إلى رابغ شمالي جدة تغير المشهد فجأة إذ لم يبق على الأجسام غير لباس الإحرام، إنه عنوان «تجرد كل زائر لبيت الله من كل شعور بالفرق بين الأمم والأجناس أو بين الغني والفقير، والرفيع والوضيع لكي يعلم الجميع أنهم إخوة سواسية أمام الله والناس» (٣٨٨). وقد لفت محمد أسد إلى جانب هذه الرؤية التي لابد من أن يشعر بها كل من يتأمل في المشهد أن الأجسام بلباس الإحرام «أخذت تمشي

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الآن بقدر أكبر من الاعتدال والعزة...» (٣٨٨).

الجميع متحمس إلى النزول من السفينة إلى «أرض أمانيهم القصوى»: أمانيهم هم وأماني أنا، ذلك أن منظر شاطئ الجزيرة العربية كان بالنسبة إليّ ذروة سنوات من البحث، ونظرت إلى زوجتي «إلسا» التي كانت رفيقتي في حجتي تلك فقرأت في عينيها الشعور نفسه» (٣٨٩).

ويتابع: «كنت مليئًا بالرجاء والأمل ولكن كيف كان يتأتى لي، وأنا جالس في مقدمة الزورق، ويد زوجتي في يدي، أن أتنبأ بأن باستطاعة مهمة الحج البسيطة أن تبدل من حياتنا هذا التبديل العميق، الكامل؟»(٣٩٠).

ويقول محمد أسد إن حجتي الأولى، وقد حج بعدها أربع مرات، تركت في نفسه تأثيرًا أعمق من كل ما خبر من رحلات، فقد كان يعرف أنه غادر الغرب ليعيش بين المسلمين، ولكنه ما عرف أنه مع تلك الحجة خلف وراءه ماضيه كله. فقد انتهى عالم الأفكار والمشاعر والمساعي والتخيلات الغربية.. «كان هنالك باب يقفل ورائي بهدوء، بهدوء كبير إلى درجة أني لم أشعر به ولم أدركه». فقد تبدلت الأيام بالكلية، وتبدل معها اتجاه رغائبه جميعًا (٣٩١).

ثمة وصف جميل لجدة وبيوتها وأسواقها، وللطريق منها إلى مكة وحشود الحجاج، وهم يقتربون من لحظة الدخول إلى مكة، ليتابع وصف بيوت مكة وحاراتها وحركة حجيجها وأهليها. وكلها صور لا يأتي بها إلا من كان بمثل محمد أسد بلاغة، ودهشة، ودقة ملاحظة، ورهافة مشاعر. ولعل مقارنة تلك الصور بما آل إليه الوضع الآن يبقيها بمثابة لوحات حية رائعة، وفنية مبدعة، ستظل الأجيال القادمة بحاجة إليها لتتواصل معها من حيث المعاني التي يحملها الحج وشعائره وعلاقة الإنسان بهما، ويكابده من انفعالات ومشاعر، وإن ذهبت المدنية بعمرانها الجديد ووسائط نقلها السريعة بأجزاء جميلة من تلك اللوجات، بل إن المحافظة على لباس الإحرام وأداء الشعائر كما كانا منذ أيام رسول الله(ص) ، ثم اندفاعه الملايين لتحقيق هذه الأمنية كل عام، لتجعل الحج حيًا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أبدًا كما كان أول مرة، فهو نبع لا يتعكر صفاؤه، ويزيد كل عام دفقانًا.

ولنترك محمد أسد يقف أمام الكعبة: «هناك انتصبت الكعبة، مغطاة بكاملها بالنسيج الحريري الأسود، جزيرة هادئة وسط ساحة المسجد المرجعة الواسعة: أبسط كثيرًا من أي أثر معماري آخر في العالم. ويكاد يبدو أن أول من بنى الكعبة - فقد أعيد بناء الكعبة بالشكل نفسه مرات عديدة منذ إبراهيم - قد أراد أن يوجد رمزًا لضعة الإنسان أمام الله. لقد عرف من بنى الكعبة أنه ما من جمال في تناسق البناء، وما من كمال في خطوطه، مهما كان عظيمًا يمكن أن يوفي الفكرة الإلهية حقها: وهكذا قصر نفسه على أبسط شكل مثلث الأبعاد يمكن أن يتصوره العقل، مكعب من الحجر» (٣٩٩).

«أيما جمال قد يستطيع الإنسان أن يخلقه بيديه، يكون من الغرور اعتباره جديرًا بالله، وإذن فكلما كان ما يستطيع الإنسان أن يتصوره بسيطًا كان ما يستطيع فعله لتمجيد الخالق أعظم ما يكون»... «حتى الحجم كان ينطق عن الإنكار الإنساني والاستسلام، فهذا التواضع الفخور في هذا البناء الصغير لم يكن له مثيل على الأرض» (٤٠٠).

ويلاحظ: «إن جزءاً من فريضة الحج أن تطوف بالكعبة سبع مرات، لا احترامًا لقدس الإسلام المركزي فحسب، وإنما أيضًا لتذكير النفس بالمطلب الأساسي للحياة الإسلامية. إن الكعبة هي رمز وحدانية الله، وحركة الحجاج الجسمانية من حولها هي التعبير الرمزي للنشاط الإنساني، ومضمونه أن أفكارنا ومشاعرنا - وكل ما يشمله تعبير «الحياة الباطنية» - ليست هي وحدها التي يجب أن يكون محورها الله. بل كذلك حياتنا الخارجية الناشطة وأفعالنا ومساعينا العملية» (٤٠١).

وبعد، فما أروع أن ينتهي هذا البحث بهذه الخاتمة الملهمة، مادام الهدف منه قراءة تجربة محمد أسد في الانتقال من عالم الغرب إلى عالم المسلمين، من «العلمانية» إلى الإسلام من خلال كتابه *الطريق إلى مكة*. ولكن حدثًا مروّعًا وقع له، وهو على تلك الحالة من السمو الروحي والنقاء النفسي، إذ شاءت أقدار الله تبارك وتعالى أن تموت

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

زوجه «إلسا» بعد تسعة أيام من حجتهما المشتركة تلك. وهي التي كانت رفيقته، وخير مشجع له، في أدق مراحل حياته عندما جاءت لحظة الانتقال إلى اعتناق الإسلام. إنه الابتلاء الأشد عليه، وهو في قمة سعادته، وما كان له أن يقوى على احتماله، والصبر عليه لو لم يكن قد اهتدى إلى الله الواحد الأحد فأصبح قادرًا على أن يركن إلى الإيمان، وقد ألقى بروحه وجسده، بعد ذلك، في حياة مليئة في عالم الجزيرة العربية يعيش الأخوة الإسلامية ويسترسل في الترحال، منخرطًا في الصحراء كأنه أحد أبنائها الأصلاء. ولولا ذلك لما استطاع أن يحتمل فقدان «إلسا» وقد عبر عن ذلك بقوله: «...فلم يبق، عندئذ، من «إلسا» غير ذكراها، وحجر في مقبرة، في مكة، وظلمة لم تنقشع إلا بعد ذلك بزمن طويل، أي بعد زمن طويل من استسلامي لمعانقة جزيرة العرب» (٤٠٢). وقد أدهشه فيها «تلك النفحة من العظمة وذلك الجدب العاري، اللذين يمتزجان دائمًا ذلك الامتزاج الغريب...» (٣٩٢)، في حين تتوسط العقد فيها مكة المكرمة التي أوحت لمحمد أسد أنها «محور العالم».

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com